**رحلة فى طلب العلم .... الامام الشافعى**

**بقلم / د الاحمدى عبد الفتاح**

**استاذ الحديث وعلومه بكلية اصول الدين ( المنصورة )**

**الحمد لله الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم والصلاة والسلام على من علمه الله بلا قلم وقال فى شأنه :**

**" وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما " النساء 113**

**وبعد : فنجم الليلة هو الكوكب الألمعى والعالم الجهبذى فقيه الامة وناصر السنة الامام ابو عبد الله القرشى المطلبى الشافعى المكى الغزى نسيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف**

**ولد بغزة ومات ابوه شابا فنشأ الشافعى يتيما فتحولت به امه فاطمة بنت عبد الله الازدية وهو ابن عامين الى مكة حفظ القرآن وهو صغير واخذ يحفظ الاحاديث ويكتبها وعنى بتعلم قواعد اللغة وكلماتها ورحل فى سبيل ذلك الى البادية وعاشر قبيلة هذيل نحو عشرة سنين**

**قال الشافعى ولدت بغزة سنة خمسين ومئة وحفظت القرآن وانا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وانا ابن عشر**

**قرأ القرآن على : إسماعيل بن قسطنطين وأخذ العلم بمكة عن مسلم ب**

**ن خالد مفتى مكة الذى أذن بالافتاء قائلا ( أفت يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتى ) وهو ابن خمس عشرة سنة ولما سمع عن مالك استعار موطأه من رجل بمكة وحفظه فى تسع ليال ثم ارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة الى المدينة ولما دخل على الامام مالك سأله مااسمك ؟ قال محمد قال : اتق الله واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شأن فقرأ عليه الموطأ فى أيام يسيرة ثم آقام بالمدينة حتى توفى مالك سنة تسع وسبعين ومئة ثم توجه بعد ذلك الى اليمن وأخذ عن هشام بن يوسف قاضى صنعاء ولما بلغ الربعة والثلاثين من عمره قدم الشافعى بغداد سنة أربع وثمانين ومئة ونزل عند محمد بن الحسن الفقيه ولازمه واستنسخ مصنفاته وحمل عنه حمل جمل جمل كتبا لذا كان يترجم عليه الشافعى فى عامة اوقاته ويقول ( أعاننى الله برجلين : بابن عينية فى الحديث وبمحمد فى الفقه ) كما تلقى العلم ببغداد على يد شيخه وكيع وقد انتفع بنصيحته والتى عبر عنها بقوله :**

**شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى**

**وأفهمنى بأن العلم نور ونور الله لا يهد ى لعاصى**

**عاد الشافعى الى مكة واخذ يلقى دروسه فى الحرم المكى والتقى به كبار العلماء فى موسم الحج كالامام احمد ابن حنبل ومكث فى مكة نحوا من تسع سنوات ثم قدم الى بغداد للمرة الثانية فى سنة خمس وتسعين ومئة واجتمع به جماعة من العلماء منهم احمد ابن حنبل والزعفرانى مكث رحمه الله فى بغداد سنتين وفى هذه الاثناء الف كتاب الرسالة واعاد تصنيفه بعد ذلك فى مصر وفى كل واحد منهما علم كثير تحدث فيه عن اصول الفقه واصول الحديث وسمى بهذا الاسم بسبب إرساله إياها لعبد الرحمن بن مهدى فلما قرأها قال ( ماأظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ) رجع الامام الشافعى بعد الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومئة وأقام شهرا فيها ثم اعتزم السفر الى مصر فرحل اليها سنة تسع وتسعين ومئة وقدمها وهو يقول**

**لقد أصبحت نفسى تتوق الى مصر ومن دونها قطع المهامه والقفر**

**فوالله ما أدرى أللفوز والغنى أساق اليها أم أساق إلى القبر**

**قال الزعفرانى فوالله لقد سبق اليهما جميعا اقام رحمه الله بمصر نحو اربع سنوات وهكذا حياته كلها كفاح ونضال وجهاد وتلك هى همة العلماء وقد امتاز الامام الشافعى بالاخلاق الحميدة والسجايا النبيلة مع علم تام وذكاء حاد وقد شهد له الجميع بالثناء الجميل**

**قال ابو عبيد : مارأيت أعقل من الشافعى وقال يونس الصدفى : مارأيت أعقل من الشافعى ناظرته يوما فى مسألة ثم افترقنا ولقينى فأخذ بيدى ثم قال : ياأبا موسى : ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق فى مسألة ؟**

**حقا الاختلاف لا يفسد للود قضية وانا صديقك وانت صديقى فإذا اختلفنا فالحق اولى بالصداقة وقال المأمون : قد امتحنت محمد بن إدريس فى كل شى فوجدته كاملا**

**ولقد كان الشافعى حسن الهيئة طويل القامة اسمر اللون مقتصدا فى ثيابه ويتختم بخاتم فى يساره كتب عليه ( كفى بالله ثقة لمحمد بن ادريس وكان حسن الصوت والإقاء يبكى القوم بقراءة القرآن وكان خطيبا مفوها وكان كثير العبادة والتهجدوحسبنا ان نعلم عنه انه قد جزأ الليل فثلثه الاول للكتابة وثلثه الثانى للصلاة وثلثه الثالث للنوم**

**قال ربيع بن سليمان : أفعاله الثلاثة عبادة بالنية ومن اخلاقه محاسبة نفسه وإحساسه بالمراقبة التامة فقد قيل له كيف أصبحت فأجاب كيف يصبح من يطلبه ثمانية :الله تعالى بالقرآن . والنبى صلى الله عليه وسلم بالسنة , والخفظة بما ينطق , والشيطان بالمعاصى , والعيال بالقوت , والدهر بنوائبه , والنفس بشهواتها , وملك الموت بقبض روحه**

**وكان يقول : ماحلفت بالله صادقا ولا كاذبا وقد افلس ثلاث إفلاسات فكان يبيع ما عنده حتى حلى بنته وزوجته ولم أمر له هارون الرشيد بخمسة الاف درهم فرقها على المحتاجين ولم يرجع الى بيته إلا بأقل من مئة دينار ولما قدم صنعاء ضربت له خيمة ومعه عشرة الاف دينار فجاء قوم فسألوه فما قلعت الخيمة ومعه فيها شىء وكان ممن يؤخذ عنه اللغة وكان ممن معادن الفقه ونقاد المعانى وجهايذة الالفاظ**

**قال عبد الملك بن هشام اللغوى : طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط وقال الاصمعى أخذت شعر هذيل عن الشافعى وأهم تلاميذ الشافعى : ابو بكر الحميدى والمزنى والربيع بن سليمان وابو داود والنسائى والجميع يشهد له بالخير**

**قال ابو داود : ليس للشافعى حديث أخطأ فيه وقال النسائى : كان الشافعى عندتا أحد العلماء الثقة مأمونا**

**قال احمد بن حنبل ليس الشافعى فيلسوف فى اربعة اشياء : فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه وقال عبد الله لأبيه احمد بن حنبل : أى رجل كان الشافعى فإنى سمعتك تكثر من الدعاء له ؟ قال يابنى : كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فهل لهذين من خلف او منهما عوض**

**وكان سفيان بن عيينة اذا جاءه شىء من التفسير والفتيا التفت الى الشافعى فيقول : سلوا هذا وقد روى أداود الطيالسى بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم ( لاتسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الارض علما ) وقدرواه الحاكم فى مستدركه عن ابى هريرة بنحوه قال ابو نعيم عبد الملك بن محمد لا ينطبق هذا إلا على محمد بن ادريس الشافعى وقال الامام احمد ( إذا سئلت عن مسالة لا اعرف فيها خبرا قلت فيها يقول الشافعى لانه امام قريشى يملا ارض علما ) الى ان قال الامام احمد وإنى لأدعو للشافعى منذ أربعين سنة فى صلاتى**

**لقد كان الشافعى يحب الحديث واهله ويشجع على اللقاء بالمحدثين حيث يقول ( عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صوابا ) كما قال أيضا ( إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنى رايت رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم جزاهم الله خير ا فلهم علينا فضل ) ومع ذلك لم يغفل علوم الدنيا والتبحر فيها ومن تلك الفنون ( الطب ) حيث قال : لا أ‘لم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب الا أن اهل الكتاب قد غلبونا عليه وكان يلهف على ماضيع المسلمون من الطب ويقول ( ضيعوا ثلث العلم ووكلوه الى اليهود والنصارى )**

**قال الامام الشافعى ( ثلاثة أشياءواء من لا دواء له وأعيت الاطباء مداواته : العنب , ولبن اللقاح , وقصب السكر لولا قصب السكر ما أقمت ببلدكم ) كما قال ( لم أر أنفع للوباء من البنفسج يدهن به ويشرب ) كما قال أيضا ( الفول يزيد فى الدماغ والدماغ يزيد فى العقل )**

**ولا ننسى أنه أقبل وهو صبى على الرمى الذى يعد رياضة اسلامية حتى فاق فيه الاقران وصار يصيب عشرة اسهم وصدق النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال ( ألا إن القوة الرمى ) فلقد فاق الشافعى فقها وعلما وادبا سريع الاجابة قوى الإصابة سئل عن رجل فى فمه تمرة فقال : إن أكلتها فا مرأتى طالق وأن طرحتها فا مرأتى طالق ؟ فقال الشافعى ( يأكل نصفها ويطرح نصفها )**

**وكتاب الام أكبرشاهد على تفقه ونبوغه العلمى وهو مبوب على ابواب الفقه ويقع فى سبعة اجزاء كما له ( الحجة فى الفقه ) وهو يتضمن مذهبه القديم**

**قال الامام احمد ابن حنبل ما عرفنا العموم من الخصوص وناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعى كما قال ايضا ( إن الله يقيض للناس فى رأس كل مئة من يعلمهم السنن وينفى عن النبى صلى الله عليه وسلم الكذب قال : فنظرنا فإذا فى رأس المئة عمر بن عبد العزيز وفى رأس المنتمين الشافعى**

**كان الشافعى رحمه الله يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه اهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسالونه تفسيره فإذا أرتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون الى قرب أنتصاف النهار ثم ينصرف رضى الله عنه**

**ومعنى هذا ان الامام الشافعى يظل نحو ست ساعات يوميا يلقى دروسا متصلة ينتقل فيها من علم الى علم وجموع التلاميذ تتوالى عليه حتى بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر**

**قال الشافعى رحمه الله ( لبقرآن كلام الله من قال مخلوق فقد كفر ) وقال ( من حلف باسم من اسماء الله فحنث فعليه الكفارة لان اسم الله غير مخلوق ومن حلف بالكعبة وبالصفا المروة فليس عليه كفارة لانه مخلوق وذاك غير مخلوق )**

**وقال : قراءة الحديث خيرمن صلاة التطوع وطلب العلم أفضل من صلاة النتافلة ومن كلماته الحسان ( من حفظ القرآن نبل قدره ومن تفقه عظمت قيمته ومن حفظ الحديث قويت حجته ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه )**

**وقال ( العلم مانفع ليس العلم ماحفظ ) وقال ( من سمع بأذنه صار حاكيا ومن أصغى بقلبه كان داعيا ومن وعظ بفعله كان هاديا )**

**كما قال ( من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظ علانية فقد فضحه وشانه ) حقا : إنها كلمات من ذهب ولو كتبت بماء الذهب لكان قليلا عليها وصدق يونس بن عبد الاعلى حيث قال عن الشافعى ( إذا قعدنا حوله كأن ألفاظه سكر وكان قد أوتى عذوبة منطق وحسن بلاغة وفرط ذكاء وسيلان ذهن وكمال فصاحة وحضور وحجة )**

**ومن طيب كلام الشافعى طيب ( إذا وجتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بها ودعوا ما قلته )**

**كما قال : إذا صح الحديث فهو مذهبى وإذا صح الحديث فاضربوا بقولى الحائط ) وكان يقول ( الايمان قول وعمل يزيد وينقص ) وكان يقول ( تجاوز الله عما فى القلوب وكتب على الناس الافعال والاقاويل )**

**قال البويطى : ( سالت الشافعى اصلى خلف الرافضى ؟ قال : لاتصل خلف الرافضى ولا القدرى ولا المرجىء قال البويكى صفهم لنا ؟ قال الشافعى : من قال الايمان قول فهو مرجىء ومن قال : إن ابا بكر وعمر ليسا بإمامين فهو رافضى ومن جعل المشيئة الى نفسه فهو قدرى )**

**وكما امتاز نشرا فقد امتاز شعرا دخل المزنى عليه فقال : كيف اصبحت يا ابا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ولاخوانى مفارقا ولسوء عملى ملاقيا وعلى الله واردا ما ادرى روحى تصير الى جنة فأهينها أو ألأى نار فأعزبها ثم بكى وأنشأ يقول :**

**ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلما**

**تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما**

**فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجرد وتعفو منة وتكرما**

**فلولاك لم يسلم من ابليس عابد وكيف وقد أغوى صفيتك آدما**

**وأوصى أن تصلى السيدة نفيسة فلما سمعت بوفاته قالت رحمة الله كان رجلا يحسن الوضوء أساس العبادة وإذا كان الاساس حسنا فكل مايبنى عليه فهو حسن فكأنما قالت : كان حسن الاجتهاد حسن العبادة**

**توفى رحمه الله ليلة الجمعة ودفن بعد صلاة عصر الجمعة التاسع والعشرين من شهر رجب سنة اربع ومئتين وله اربعة وخمسون عاما**

**وإنى أعزيه بما كان يعزى به الناس :**

**إنى أعزيك لا أنى على ثقة من المنية ولكن سنة الدين**

**من المنية ولكن سنة الدين فما المعزى بباق بعد صاحبه**

**ولا المعزى وإن عاشا إلى حين**